دور المدرسة الاستشراقية في التعريف بتراث الغرب الإسلامي
- فرناندو دي لا جرانخا نموذجا-

عبد الحق شرف،
جامعة تيارت

مقدمة:

إن المتتبع لنشاط المدرسة الاستشراقية في التعريف بتراث الغرب الإسلامي، يلمس ذلك الجهد الكبير الذي بذله رواد هذه المدرسة في سبيل دراسة وتحقيق ونشر ما تيسر نشره من هذا التراث.

وقد يطرح تاريخ الغرب الإسلامي وتراثه المخطوط العديد من القضايا التي تستلزم المراجعة وإعادة النظر حول ما أُنجز عنه تأليفا وتحقيقا من طرف المستشرقين، ويجب أن يكون ذلك في طليعة الاهتمامات التي ينبغي أن تنصب عليها المراجعة والتصحيح، ليس بغرض الإنقاص والتقليل من قيمة كل الكتابات الاستشراقية أو تجاهل ما قامت به من أعمال جليلة أسدت خدمة كبيرة لتاريخ الغرب الإسلامي، فما قام به نفر من هؤلاء المستشرقين من أعمال جادة في تحقيق مجموعة من المخطوطات، يجعلنا نسلّط الضوء على العديد من قضايا تاريخ الغرب الإسلامي.

ويكفينا في هذا السياق أن ننوه بإنجازات كل من "بروفنسال" و "دوزي" و"فرناندو دي لا جرانجا" وغيرهم من الذين لولا جهودهم لظل تاريخ الغرب الإسلامي وتراثه المخطوط يشكوان من الإهمال والابتسار والسطحية وربما الانقراض والاندثار.

وقد وجد هؤلاء المستشرقون في صحيفة المعهد المصري بمدريد منبرا هاما للتعريف بأعمالهم في مجال تحقيق تراث الغرب الإسلامي منذ أول صدور لها سنة 1953، فراحوا ينشرون ما جادت به أفكارهم وأعمالهم في هذه المجلة كإعلان صريح عن خدمتهم وتفانيهم في التعريف بتراث الغرب الإسلامي.

وسنحاول من خلال هذه الورقة العلمية، أن نتتبع أعمالهم وجهودهم في التعريف بهذا التراث من خلال هذه المجلة منذ بداية صدورها إلى سنة 1998، ونُقدِّم دراسة نقدية للعمل الذي قدمه المستشرق "فرناندو دي لا جرانجا" من خلال تحقيقه لمخطوط "تحفة المغترب ببلاد المغترب" للفشتالي المنشور بالمجلة نفسها سنة 1972 ضمن العدد السابع عشر.

ولا ريب أن الباحث الجادّ عاجز عن متابعة الإنتاج البشري في ميدان المعارف النظرية والعلمية من آداب ولغات وتاريخ وفلسفة وغيرها، هو عاجز عن المتابعة في عصر كثرت فيه التخصصات وتفرعت المعارف إلى حقول معرفية لا يحصيها العدّ، وحسبنا هاهنا ما أعلنه فايول أستاذ النقد في جامعة الصربون من أنه ليس بإمكان اختصاصي واحد في الأدب الفرنسي يدرّس أدبيا فحسب، أو فترة أدبية، أو يطبق منهجا نقديا..ليس بإمكانه استيعاب هذه المناهج وتلخيصها. (بادور، أ. 1996، 7)

وقفة مع مجلة المعهد المصري بمدريد منذ صدورها سنة 1953 إلى سنة 1998:

المنارة للاستشارات

مجلة المعهد المصري؛ هي مجلة أصدرها المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد الذي تأسس سنة 1953. وعن سبب إصدار المجلة نجد مدير المعهد وقتذاك ورئيس تحريرها سامي النشار رحمه الله يقول: "وكما كان إنشاء المعهد ضرورة قصوى لدراسة الحضارة الإسلامية في إسبانيا على يد بحّاث عرب، كانت الحاجة ماسة إلى نشر مجلة للمعهد حاوية لأبحاث حلقته وحلقات الإسبان العلمية، بل إن نظرة المعهد إلى التعاون سمت إلى أفق أعلى..ولكل أن يدلي بدلوه؛ على أن ندلي أيضا بدلونا ما دمنا بصدد تاريخنا". (النشار، س. 1953، 1: هـ)

وقد صدر العدد الأول من المجلة سنة 1953م/1372هـ، وفي مناسبة إصداره نجد سامي النشار يقرّر قائلا: "ونحن نؤمن بأن العلم والبحث ليس وقفا على أمة دون أمة؛ ولا طائفة على طائفة، بل إن البحث العلمي فكرة إنسانية مشاعة بين العلماء..ولذلك نرى في مجلتنا أبحاثا كتبها إسبان وأخرى كتبها فرنسيون، وثالثة هي أقلّها كتبها مصريون وعرب".(النشار، س. 1953، 1: هـ)

وقد كان الأمل كبيرا في أن تلق المجلة رواجا واسعا خاصة في أوساط المدرسة الاستشراقية حتى يُكتَب لها الذيوع والانتشار والقبول، وهو ما تعبّر عنه بصدق العبارة التي أوردها رئيس تحريرها النشار حين قال: "ونحن نأمل أيضا أن نجد أصدق المعاونة من هؤلاء المستشرقين الأوروبيين الذي لم يتمكنوا من إرسال أبحاث للعدد الأول، أو الذين لم تصلهم دعوة منا للكتابة في هذا العدد". (النشار، س. 1953، 1: هـ)

ومن خلال عمل مسحة شاملة لكل أعداد المجلة التي نشرت منذ صدورها إلى سنة 1998، يلاحَظ أن عدد الدراسات التي نشرها المستشرقون في أعدادها الثلاثين (القسم العربي) بدأت تتناقص تدريجيا إلى آخر عدد؛ وفي بعض الأحيان لا نسجل لها حضورا على الإطلاق.

العدد الأول: سجّلت المدرسة الإستشراقية حضورا قويا من حيث عدد الدراسات المنشورة فيه، فمن بين تسعة دراسات نشرت ضمنه؛ ظفر المستشرقون بستة منها موزعة حسب الجدول التالي:

اسم المستشرق	عنوان الدراسة المقدمة
رامون منندث بيدال	إسبانيا حلقة اتصال بين المسيحية والإسلام.(منندث، ر. 1953، 1: 1- 24)
إميليو غرسيه غومس	قصيدة سياسية لابن طفيل لم تنشر بعد. (غومس، إ. 1953، 1: 25- 32)
الأب ما نويل آلونسو آلونسو	ابن سينا وآثاره الأولى في العالم اللاتيني. (آلونسو، آ. 1953، 1: 40- 61)
آ. جييو	ثلاثة نقود لاتينية عربية مع مجموعة جاك دو مورجان. (جييو، آ. 1953، 1: 62- 70)
خوان بيرنيط	هل هناك أصل عربي إسباني لفن الخرائط البحرية. (بيرنيط، خ. 1953، 1: 71- 96)
ليوبولد توريس بلباس	الأبنية الإسبانية الإسلامية. (بلباس، ل. 1953، 1:

المنارة للاستشارات

	(128 -97

العدد الثاني: والذي صدر بتاريخ 1954م/1373هـ برئاسة مدير المعهد حسين مؤنس، وقد ضمّ القسم العربي منه حضورا محتشما للدراسات الاستشراقية، فمن بين 13 دراسة نشرت فيه نجد دراستين فقط للمستشرق الفرنسي برفنصال والإسباني غومس، وهي كالتالي:

اسم المستشرق	عنوان الدراسة المقدمة
ليفي بروفنصال	نص جديد عن فتح العرب للمغرب. (بروفنصال، ل. 1954، 2: 193- 224)
إميليو غرسيه غومس	كتاب "الأيام" ومكانته في تاريخ النثر العربي. (غومس، إ. 1954، 2: 240- 251)

العدد الثالث: الصادر بتاريخ 1955م/1374هـ ضمّ ستة دراسات؛ ظفر المستشرقون بدراسة واحدة منها فقط، وهي عبارة عن رسالة مخطوطة لابن الصفار معنونة بـ: "كتاب العمل بالإسطرلاب وذكر آلاته وأجزائه" والتي قام على نشرها المستشرق ميلس بياكروزا. (بياكروزا، م. 1954، 3: 47- 76)

العدد الرابع: الذي صدر سنة 1956، نُشرت فيه دراسة واحدة عن تاريخ الغرب الإسلامي، للمستشرق لويس سيكو دي لوثينا(مستشرق إسباني، وأستاذ اللغة العربية في جامعة غرناطة ومدير مدرسة الأبحاث العربية فيها. لوثينا، ل. 1954، 4: 169) تحت عنوان: "وثائق عربية غرناطية لم تنشر". (لوثينا، ل. 1954، 4: 169- 181) وهذه الدراسة عبارة عن محاضرة قدمها الأستاذ سيكو إلى المؤتمر الألماني الثاني للإستشراق المنعقد في بون عاصمة الاتحاد الفدرالي الألماني سنة 1952. (لوثينا، ل. 1954، 4: 169)

الأعداد: الخامس الصادر سنة 1957، والسادس الصادر سنة 1958، ولم يضم هذين بين طيّيهما أي دراسة استشراقية عن تاريخ الغرب الإسلامي.

العددان السابع والثامن: الصادران سنة 1959، نجد فيه تكملة للدراسة السابقة التي نشرها المستشرق الإسباني سيكو دي لوثينا في العدد الرابع عن الوثائق العربية الغرناطية.(لوثينا، ل. 1959، 7و8: 85- 108)

العددان التاسع والعاشر: اللذان صدرا سنة 1961، وقد قدم البحاثة الإسباني أمبروزيو أويثي ميرندا فيهما دراسة قيّمة تمثلت في تحقيق لكتاب "الطبيخ في المغرب والأندلس في عصر الموحدّين" لمؤلف مجهول.(ميرندا، أ. 1954، 9و10: 15- 256) وقد تم نشر العمل كاملا في المجلد الخامس من القسم الإفرنجي.

الأعداد: 11- 12 الصادر بتاريخ 1963 والعدد 13 الصادر بتاريخ 1965؛ نجد غيابا تاما لأبحاث المستشرقين.

العدد الرابع عشر: الصادر بتاريخ 1967 ضمّ بين دفتيه دراسة عن "طب الأسنان عند العرب" قدّمها الأستاذ الألماني أتو شبيس ونقلها إلى العربية حسين مؤنس. (شبيس، أ. 1967، 14: 230)

العدد الخامس عشر: صدر هذا العدد سنة 1970 ونشرت فيه دراسة للباحث الألماني هانز ردولف سنجر(رئيس قسم اللغة العربية بمعهد الدراسات الأجنبية، جامعة ماينز، جرمر سهايم، ألمانيا الإتحادية. هانز، ر. 15: 1970، 196) عن "قائمة بأسماء الأماكن

المنارة للاستشارات

والبلدان الواردة في كتاب الصلة لابن بشكوال". (هانز، ر. 15: 1970، 151-196)

العدد السادس عشر: صدر العدد سنة 1971 وردت بين ضمّتيه دراسة للباحث الألماني باول كونتش عن "آثار التراث العربي في اللغة الألمانية". (كونتش، ب. 16: 1971، 35-47)

العدد السابع عشر: صدر سنة 1972، وقد نُشر ضمنه بحثان فقط كان أحدهما من نصيب المستشرق فرناندو دي لا جرانخا وهو عبارة عن تحقيق لمخطوط "تحفة المغترب ببلاد المغرب لمن له من الإخوان في كرامات الشيخ أبي مروان" لأحمد بن إبراهيم بن يحي الأزدي الفشتالي والذي سنخصّه بدراسة نقدية. (لاجرانخا، ف. 17: 1972، 15 -182)

الأعداد: 18 لسنة1974- 75، ثم العدد19 لسنة 1976- 78، وكذا العدد20 الصادر سنة 1979- 80، لم ينشر أي بحث لأي واحد من المستشرقين في القسم العربي من هذه الأعداد.

وفي العدد22 الصادر بتاريخ 1983- 84، لم يضمّ بين جنباته أي دراسة استشراقية.

العدد الثالث والعشرون: صدر هذا العدد سنة 1985- 86، وهو عدد خاص بالأبحاث التي ألقيت في مؤتمر الحضارة الأندلسية بجامعة القاهرة سنة 1985.

وقد احتوى هذا العدد على دراسة مهمة للباحث فدريكو كورينتي قرطبة عن "خصائص كلام أهل الأندلس نظما ونثرا".(كورينتي، ف. 23: 1985- 1986، 59- 68)

الأعداد: 24 الصادر سنة 1987- 88، 25 الصادر سنة 1991- 92، 26 الصادر سنة1993- 94، جاءت كلها- في القسم العربي منها- خالية من أبحاث المستشرقين.

الأعداد: 28 الصادر سنة 1996 (عدد خاص بالذكرى الأولى لعميد المستعربين الإسبان إميليو غارثيا غومث) 29 الصادر سنة 1997، جاءت خالية من أبحاث المستشرقين.

العدد الثلاثون: صدر هذا العدد سنة 1998، وقد ضم هذا العدد بين دفّتيه دراسة للأستاذ أكناثيو فيرناندو بعنوان: "اللغة العربية في مدينة طليطلة بعد الفتح النصراني ووثائق المستعربين".(أكناثيو، ف. 30: 1998، 161- 170)

وعلى العموم؛ نلاحظ من خلال هذه المسحة الشاملة لكل الدراسات الاستشراقية المقدمة في مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية- القسم العربي- أن عدد الدراسات التي قدّمها المستشرقون بدأت تتناقص تدريجيا منذ بداية صدورها سنة 1953 إلى غاية سنة 1998، وفي بعض الأحيان تنعدم انعداما تاما كما تمت الإشارة إلى ذلك سالفا.

وفيما يلي نحاول تقديم دراسة نقدية لواحدة من هذه الدراسات، ونعني بها العمل الذي نشره "فرناندو دي لا جرانخا" في عدد سنة 1972، وهو عبارة عن تحقيق لمخطوط "تحفة المغترب ببلاد المغرب لمن له من الإخوان في كرامات الشيخ أبي مروان" لأحمد بن إبراهيم بن يحي الأزدي الفشتالي.

التعريف بالمستشرق فرناندو دي لا جرانخا سانتا مريا:

المنارة للاستشارات

ولد فرناندو دي لا جرانخا في سنة 1928 بمدينة مدريد الإسبانية في حي Maravillas أو العجائب؛ من عائلة متواضعة. وبعد اجتيازه لامتحان البكالوريا التحق بالجامعة ليتخصص في الفلسفة والآداب.

وفي الجامعة تأثر لاجرانخا كثيرا بأستاذه إميليو غرسية غومس الذي جمعته به علاقة لسنوات طويلة كان خلالها ينصحه بتعلّم اللغة العربية، هذه الأخيرة كان لاجرانخا قد قرر أن يتعلمها ويتبحر فيها بعد زيارته للعرائش وتطوان خلال سنوات الخدمة العسكرية.

كما أنه وخلال ذهابه إلى مصر في إطار منحة جامعية من طرف وزارة الشؤون الخارجية لمواصلة دراسته في جامعة القاهرة بين سنتي 1953- 1955، استقبله كل من طه حسين ولويس ماسينيون. ولسوء الحظّ فإن مدّة إقامته بمصر لم تطل كما كان مقررا لها أن تدوم طويلا بسبب المرض، حيث اضطر للعودة إلى إسبانيا.

وبعد شفائه من المرض أكمل دراسته في كلية الفلسفة والآداب بجامعة مدريد؛ هذه الجامعة التي نُصّب فيها كأستاذ مساعد في قسم العربية وكمسؤول عن الكاتدرائية التي كان يديرها أستاذه غومس الذي استدعي في إطار مهمة ذبلوماسية في الشرق الأوسط.

وخلال سنة 1961 فاز بمنصب أستاذ مساعد ومنصب كاتدرائي للغة والأدب العربي بجامعة سرغوسا سنة 1964. وهذه الجامعة - سرغوسا- مكث بها مدة أربع سنوات حتى سنة 1968 وهو تاريخ رجوعه إلى مدريد لينظم قسم اللغة العربية للجامعة المستقلة.

وقد عاش لاجرانخا حياة علمية حافلة توزّعت بين مناقشته لأطروحة الدكتوراه سنة 1960، وكذا نشر الكثير من الدراسات الأندلسية نظما ونثرا، حيث كان له فضول بدون حدود فيما تعلق بدراسة مميزات العقلية العربية الأندلسية والكتب المتداولة وقتها، وكذا المعتقدات الشعبية والحكايات المتداولة شفويا، واستطاع ترجمة أغلب الموروث الشعبي الأندلسي من العربية إلى الإسبانية.

وخلال سنة 1987 مرض لاجرانخا كثيرا إلى درجة أنه وبعد شفائه منه لم يعد قادرا على أن يعود إلى ما كان عليه من نشاط قبل المرض، ليبدأ منحنى حياته في الهبوط شيئا فشيئا إلى أن طلب التقاعد سنة 1997.

ومع بداية شهر جوان من سنة 1998 مرض لاجرانخا مرضه الأخير وقد اهتمت به زوجته كثيرا خلال هذه الفترة، وبقي بضعة أشهر يصارع المرض إلى توفي في يوم 24 فيفري 1999م، ودفن يوم الخميس 25 فيفري في يوم بارد وقارص وممطر جدا.

(Teresa, G. 1999, XX2 :261_274)

لاجرانخا ومنهجه في التعريف بمخطوط تحفة المغترب ونسبته إلى مؤلّفه:

كتاب تحفة المغترب ببلاد المغرب للفشتالي، من المخطوطات النفيسة التي حفظها لنا الزمن، قام على نشره وتحقيقه المستشرق الإسباني فرناندو دي لا جرانخا في صحيفة المعهد المصري ضمن أعمال الجزء السابع عشر لسنة 1972، وقد استغرق ذلك الصفحات 5- 180.

المنارة للاستشارات

وذكر لا جرانخا أن كتاب "تحفة المغترب ببلاد المغرب" لأحمد بن إبراهيم بن يحي الأزدي الفشتالي، يتواجد ضمن مجموع مخطوط فريد ونفيس محفوظ بالمكتبة الوطنية بباريس تحت رقم 3486، ويحتل الورقات 143 إلى 197. ".(لاجرانخا، ف. 17: 1972، 05)

وقد أورد كارل بروكلمان في تاريخ الآداب عنوان المخطوط فقط ومؤلفه الذي يسميه "أحمد بن إبراهيم الأزدي الفشتالي" ولم يزد عن ذلك شيئا، واعتبر المخطوط كما لو كان عملا شعريا.

كما أن جورج فايدا في فهرسته للمخطوطات العربية الإسلامية بالمكتبة الوطنية بباريس أورد اسم مؤلف المخطوط كما أورده بروكلمان، بيد أنه كان مترددا كثيرا في نسبة المخطوط إلى صاحبه، فأورده مرات بـ "القشتالي" ومرات بـ"الفلالي"، لكنه اعتبر المخطوط عملا تاريخيا صرفا.(Fajda, G, 1953: 691)

وقد ردّ لا جرانخا على هذا التذبذب الوارد عند كل من بروكلمان وفايدا قائلا: والواقع أن اسم المؤلف يظهر بوضوح مرتين في نفس المخطوط عند الورقة 143و والورقة 144و، وبصورة كاملة على النحو التالي: "قال العبد الفقير إلى رحمة ربه، المعترف بذنوبه أحمد بن إبراهيم بن يحي الأزدي الفشتالي".(لاجرانخا، ف. 17: 1972، 17)

وأما عن عنوان المخطوط ومناسبة التأليف فقد أورد لا جرانخا نقلا عن المخطوط ما يلي: "تحفة المغترب ببلاد المغرب لمن له من الإخوان في كرامات الشيخ أبي مروان"، "أما بعد: فإنه قد سألني قبل هذا الآن جماعة من الإخوان، أن أؤلّف لهم ما رأيت أو ما بلغني عن ثقات أهل هذا الزمان، من كرامات الشيخ أبي مروان عبد الملك بن إبراهيم بن بشر القيسي".(لاجرانخا، ف. 17: 1972، 17)

وعلى الرغم مِن أنّ كل من بروكلمان وفايدا لم يعطيا أية معلومات هامة عن المخطوط ولا عن مؤلّفه ولا الشخصية التي أُلّف من أجلها المخطوط، فإن المسألة بدت معقدّة بعض الشيء. بيد أن لا جرانخا تفطّن لرواية مهمة جدا حسمت الأمر في الأخير وهي الرواية التي أوردها المقري في نفح الطيب والتي أنقضت الموقف لحسن الحظ.

فقد عرّف المقري بالشخصية المرادة من هذا التأليف- تحفة المغترب- "أبو مروان"، وذلك في معرض حديثه عن الأندلسيين الذين رحلوا إلى المشرق قائلا: "ومن الراحلين الولي الصالح أبو مروان عبد الملك بن إبراهيم بن بشر القيسي، وهو ابن أخت ابن صاحب الصلاة البجانسي نسبة إلى بجانس قرية من قرى وادي آش، وكان رحمه الله في أواسط المائة السابعة، وقد ذكره الفقيه أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن يحي الأزدي الفشتالي في تأليفه الذي سمّاه تحفة المغترب ببلاد المغترب".(المقري، أ. تحقيق إحسان عباس، 1988، 2: 690)

ومما يعضّد ما ذهب إليه لا جرانخا سابقا، هو أن صاحب النفح نقل بعض الفقرات عن تحفة المغترب السابق الذكر، حيث نجده يسرد لنا حديثا دار بين مؤلفه والشيخ أبي مروان، قائلا: "سألت الشيخ أبا مروان يوما في مسيري معه من وادي آش إلى بلده بجانس سنة تسع وأربعين وستمائة، فقلت له: أنت يا سيدي لم تكن قرأت ولا لازمت المشايخ قبل سفرك للمشرق، ولا سافرت مع عالم تقتدي ببركته في هذا الطريق؟ فقال لي: أقام الله تعالى لي من باطني شيخا. قلت له: كيف؟ قال: كنت إذا عرض لي

المنارة للاستشارات

أمر نظرت في خاطري فيخطر لي خاطران في ذلك، أحدهما محمود والآخر مذموم، فكنت أجتنب المذموم وأرتكب المحمود، فإذا وصلت إلى أقرب بلد سألت عمّن فيه من المشايخ والعلماء فأسأله عن ذلك، فكان يذكر لي المحمود محمودا والمذموم مذموما فأحمد الله تعالى أن وفقني، ومع تتابع ذلك واتصاله دون مخالفة لم أعتمد على ما يقع بخاطري من الأمور الشرعية إلى الآن حتى أسأل عنه من حضر من العلماء".(المقري، أ. تحقيق إحسان عباس، 1988، 2: 690- 691)

كما نقل لنا المقري موقف صاحب تحفة المغترب رأيه في حق المتصوفة، حيث قال: "حموا طريق الحق فحاماهم، ونوّر بصائرهم فأصمّهم عن الباطل وأعماهم، وأهانوا في رضاه نفوسهم، ورفضوا نعماهم فأعلى قدرهم عنده وعند الناس وأسماهم".(المقري، أ. تحقيق إحسان عباس، 1988، 2: 691)

ومما ينمّ عن أهمية ما وظّفه لا جرانخا من أدلّة في إثبات عنوان المخطوط ونسبته لمؤلّفه، هو أنه لا بروكلمان ولا فايدا ولا بقية المستشرقين ممن تناولوا شخصية أبي مروان بطريقة غير مباشرة، لم يشيروا إلى رواية المقري هذه على الإطلاق مع أهميتها.

موضوع المخطوط والرد على الشبهات والأخطاء التي وقع فيها لا جرانخا:

يدور موضوع مخطوط "تحفة المغترب" حول كرامات الولي الصالح أبو مروان عبد الملك بن إبراهيم بن بشر القيسي. وأما عن المصادر التي تناولت حياة الشيخ أبي مروان، نجد لا جرانخا يؤكّد أن المعلومات الواردة حول هذه الشخصية والترجمة الأوفى حظا له، هي تلك الترجمة التي أوردها عبد الحق بن إسماعيل البادسي في كتاب المقصد الشريف والمنزع اللطيف في ذكر صلحاء الريف، الذي قام المستعرب الفرنسي جورج كولان بترجمة القسم الثالث منه إلى الفرنسية والتعليق عليه (المنوني، م. 1983، 1: 75) ، وقد كان الشيخ أبو مروان الأندلس الوحيد الذي ترجم له البادسي ترجمة مطولة.

وذكر صاحب النفح أن الشيخ أبي مروان، هو ابن أخت ابن صاحب الصلاة البجانسي نسبة إلى بجانس قرية من قرى وادي آش، وقد كان حيا رحمه الله في أواسط المائة السابعة. ".(المقري، أ. تحقيق إحسان عباس، 1988، 2: 690)

وقد عاش الشيخ أبو مروان في عصر حاسم حرج، وهو عهد انقضاء الدولة الموحدية، وعاش سنوات طويلة جاب خلالها أنحاء العالم الإسلامي، فأدى فريضة الحج مرات عديدة، وأقام في مصر والشام والعراق وبلغ بلاد خراسان، وتجول في شمال إفريقيا إلى أن استقر به المقام بمدينة سبتة التي وافته المنية بها، ودفن برابطة أحجار السودان بضواحيها. (لاجرانخا، ف. 17: 1972، 09 و12)

وفي حديثه عن شخصية أبي مروان ونسبته إلى بجانس، نجد أن المحقق قد حصل له تذبذب كبير في ذكر الاسم الصحيح لهذه القرية التي ينتمي إليها الشيخ أبو مروان.

فقد ورد اسم القرية عند المحقق في تقديمه للمخطوط كما يلي: "والواقع أن مخطوط تحفة المغترب يدور موضوعه حول كرامات الشيخ أبي مروان عبد الملك بن إبراهيم بن بشر القيسي اليحانسي نسبة إلى بلدة يحانس الحالية في ولاية المرية" وقد علّل لا جرانخا هذه النسبة قائلا: "وكلمة يحانس والنسبة إليها يحانسي تظهران في بعض المصادر المغربية في أشكال مختلفة"، ويعدّ هذا من الأخطاء التي وقع فيها لا جرانخا،

المنارة للاستشارات

حيث إن اسم القرية هو بجانس وليس يحانس، حجتنا في ذلك ما ذكرناه سابقا نقلا عن المقري في نفح الطيب.

ثم إن المصادر المغربية التي أشار إليها لا جرانخا واعتمدها لتبرير ما ذهب إليه خاصة منها كتاب روض القرطاس لم تشر على الإطلاق إلى هذه القرية والاختلاف الوارد في رسم اسمها كما ذكر لا جرانخا في قوله"ومن المؤكّد أن كتاب روض القرطاس كان يعني شيخنا أبا مروان عند قوله في أحداث سنة 667هـ/1268- 1269: وفي سنة سبع وستين توفي الشيخ الصالح أبو مروان الوجانسي بمدينة سبتة".(لاجرانخا، ف. 17: 1972، 08) وبرجوعنا إلى أحداث هذه السنة عند صاحب روض القرطاس نجد أنه لم يشر على الإطلاق إلى الرواية التي ساقاها لا جرانخا. (ابن أبي زرع، ف. 1972: 277و 306- 307)

كما أن لا جرانخا ذهب في تأكيد هذه المسألة إلى أبعد من ذلك، حيث استدلّ بما أورده المستشرق الإسباني ميجيل أسين بلاثيوس من أن الشيخ أبو مروان من يحانس وليس بجانس، وذلك في معرض حديثه لتتلمذ الشيخ أبي الحسن الشاذلي على يدي الشيخ أبي مروان.(Miguel, A. 1945,x,1215)

ومن الغريب أن لا جرانخا قد تكرر معه الخطأ إلى نهاية المخطوط؛ دون أن ينتبه أن رسم الباء والجيم مشابه لرسم الياء والحاء في الخط المغربي وهو الخط الذي كتب به المخطوط كما أشار إليه هو نفسه واعترف به لما قال: "إن مخطوطة التحفة ليست مؤرخة مع أنها قديمة قد تعود إلى القرن الخامس عشر الميلادي..وهي مكتوبة بخط مغربي غير أنيق وكثير الإهمال، وهي في كثير من الأحيان بخط غير معجم الحروف، وهناك بضعة كلمات قليلة مشكلة جزئيا أوكليا"(لاجرانخا، ف. 17: 1972، 08)، ومن المرجح أن يكون لا جرانخا قد ذهب ضحية عدم معرفته بالرسم المغربي معرفة شاملة، والإهمال وغياب الأناقة التي كُتب بها.

القيمة التاريخية للمخطوط من وجهة نظر لا جرانخا:

وعن قيمة كتاب تحفة المغترب ومن وجهة نظر موضوعية، فإننا نجد لا جرانخا وبكل تواضع، يشير إلى أنه لم يكن بحاجة إلى تبرير نشره لهذا المخطوط الذي كان منسيا وقتها، بل كان لزاما الإشارة إلى الأهمية القصوى التي تكتسيها مثل هذه المؤلفات عن الكرامات لدراسة الحياة الروحية والتصوف في بلاد المغرب الإسلامي ابتداء من القرن السادس الهجري الموافق للثاني عشر الميلادي.

وقد نوّه المحقق للأهمية القصوى لهذا الكتاب قائلا: "إن أهم شيء في هذا الكتاب بالإضافة إلى المادة الوافية التي يقدمها لدراسة نفسية هذا الشيخ الأندلسي وبالإضافة إلى المعلومات التاريخية المهمة، هو ما نجده في تصويره للحياة الاجتماعية، وعرضه لمجريات الحياة اليومية والعائلية، وكذلك ما نجده أيضا من آراء هذا الشيخ الأندلسي حول المشرق الإسلامي"(لاجرانخا، ف. 17: 1972، 12)، ثم يضيف قائلا: "إن تحفة المغترب الذي أوحته الدوافع نفسها والروح نفسها التي أوحت التآليف المغربية الأخرى؛ له أهمية أكبر من حيث أنه مركز حول شخصية واحدة، ويعتبر نوعا من الترجمة لإنسان غير عادي، بالإضافة إلى أنه يفيدنا في التعرف على الظاهرة الدينية ومدى إحساس الأندلسيين بها".(لاجرانخا، ف. 17: 1972، 11- 12)

المنارة للاستشارات

ويرجح لا جرانخا أن يكون سبب تأليف الكتاب هو ظاهرة التصوف التي طبعت الحياة العامة زمن المرابطين والموحدين، وراحت تتعمّق أكثر فأكثر في نفوس الجماهير الشعبية حتى أخذت تنعكس في تآليف شعبية جعلت تعتني بجمع تراجم هؤلاء الرجال البسطاء الذين كانوا أولياء الله الصالحين. (لاجرانخا، ف. 17: 1972، 11)

ويبرر ما ذهب إليه لا جرانخا ويؤيده قول كولان حين تحدث عن أهمية هذه التآليف خلال هذا العهد، خاصة منها كتاب المقصد الشريف للباديسي وكتاب التشوف للتادلي، وكتاب أنس الفقير لابن قنفذ، بل إن لا جرانخا يذهب إلى أبعد من ذلك بكثير لما يقرر قائلا: "وليس في الأندلس هذا النوع من الأدب".(لاجرانخا، ف. 17: 1972، 11)

ملاحظات نقدية على منهج لا جرانخا في تحقيقه لتحفة المغترب:

إن القارئ لمخطوط تحفة المغترب ببلاد المغترب الذي حققه ونشره لا جرانخا، يلمس الجهد المبذول من أجل تقديمه في صورته الصحيحة وهو الشيء المرجو من عملية التحقيق التي تهدف إلى إخراج المخطوط كما أراد له مؤلفه خاليا من الأخطاء والتصحيف والتحريف.(المنجد، ص. 1987: 09)

وعملا وتماشيا مع قواعد التحقيق التي أرساها المحققون المتقدمون ثم المحدثون، فإن لا جرانخا قد مضى في تحقيقه للمخطوط على النهج نفسه مراعيا في ذلك ما طبقه المستشرقون في نشرهم للنصوص العربية من قواعد دقيقة تضمن الأمانة في إخراج النص.

ورغم أن لا جرانخا قدّم جهدا معتبرا في سبيل إخراج المخطوط إلى النور وهي مزية كبيرة قدّمها لتراث الغرب الإسلامي - ولا نبخسها حقها- فقد وقع في بعض الأخطاء وهي كالأتي:

أولا: في نسبة المخطوط إلى صاحبه

تقتضي عملية التحقيق أن يُتحقق من صحة الكتاب واسمه ونسبته إلى مؤلفه (المنجد، ص. 1987: 15)، لكن لا جرانخا نجده في نسبة المخطوط رغم أنه أشار إلى التذبذب الذي حصل عند بركلمان، والتناقض الذي وقع فيه جورج فايدا في التحقق صحة اسم المؤلف، فإنه ترك المسألة دون قيد ودون تمحيص ولا تحقيق، بل إنه أصرّ على مؤلّف مخطوط "تحفة المغترب ببلاد المغترب" هو أحمد بن إبراهيم بن يحي الأزدي القشتالي والصواب الفشتالي وليس القشتالي كما دلّلنا على ذلك بما ذكره المقري في النفح، ويلاحظ أن هذا الخطأ قد تكرر في كل المخطوط بدون استثناء.

ثانيا: معارضة النصوص المنقولة بمصادرها

لم يكلّف لا جرانخا نفسه عناء تخريج النصوص التي استدلّ بها صاحب المخطوط، متحججا في ذلك بقوله: "إن التعليق والتفسير ومناقشة العديد من الجمل والعبارات الغامضة في النص سنوردها في الترجمة الإسبانية".(لاجرانخا، ف. 17: 1972، 13)

ثالثا: التحقق من رسم الحروف تفاديا للتصحيف والتحريف

وقد وقع لا جرانخا في هذا المطبّ ونبهنا إلى ذلك سابقا، وهو ما جعله يثبت بعض الأشياء خطأ مثل نسبة المخطوط لصاحبه والقرية التي سكنها الشيخ أبو مروان المعني بكتاب التحفة.

رابعا: إثبات نص المخطوط كاملا

المنارة للاستشارات

الأصل أن يثبت المحقق النص كما كتبه مؤلّفه دون زيادة ولا نقصان، ويسمح للمحقق إضافة حرف أو كلمة سقطت من المتن شريطة أن ينبّه على ذلك(المنجد، ص. 1987: 16)، لكن لا جرانخا بتر صفحات كاملة من المخطوط دون أن ينبه على ذلك، ربما لأنه رأى فيها ضربا من الحشو والإطناب كما فعل مع ديباجة المخطوط (و143ظ) التي اكتفى منها بالبداية فقط وحذف البقية واستعان بوضع نقاط استمرارية بدلها (لاجرانخا، ف. 17: 1972، 17) وانتقل مباشرة إلى مواضيع المخطوط (و144و) (لاجرانخا، ف. 17: 1972، 17) ليعود بعد ذلك ويحذف جزءا كبيرا من المخطوط يقدر بحوالي أربع عشرة صفحة ابتداء من (و144ظ) إلى (و152ظ). (لاجرانخا، ف. 17: 1972، 19)

خاتمة:

ظلّت مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد - التي تعاقب على إدارة تحريرها الكثير من أجلاء المؤرخين- قرابة النصف قرن منبرا هاما لعدد من الدارسين الإسبان مستشرقون ومستعربون، حاولوا من خلال أبحاثهم الجادة التعريف بتراث الغرب الإسلامي وإخراج بعضه إلى النور.

ويعتبر المستشرق الإسباني فرناندو دي لا جرانخا المعروف بحبه وإنصافه لتراث الغرب الإسلامي من المستشرقين الذين أدلوا بدلوهم في مجال تحقيق ونشر نصوص كثيرة من تراثنا الأندلسي، وما نَشَرَه في صحيفة المعهد المصري متمثلا في مخطوط تحفة المغترب للفشتالي - رغم وقوعه في بعض المطبات والهفوات- جاء بحق محاولة جادة أضافت جديدا علميا في مجال البحث التاريخي للغرب الإسلامي.

المصادر والمراجع:

ابن أبي زرع الفاسي، علي. (1972) الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، الرباط: دار المصور للطباعة والوراقة.

أكناثيو، فرناندو. (1998). "اللغة العربية في مدينة طليطلة بعد الفتح النصراني ووثائق المستغربين". مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، تصدر عن معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، مج30، ص.ص. 161- 170.

آلونسو، آلونسو. (1953). "ابن سينا وآثاره الأولى في العالم اللاتيني" تعريب تاج الدين أبو زيد. مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، تصدر عن معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، مج 01(العدد 1)، ص.ص. 40- 61.

بادور، أمين سلمان. (1996) مجلة المناهل- دراسة بيبليومترية وتوثيق منهجي لموادها من العدد الأول حتى الأربعين 1974حتى 1992، ط1، الرياض: مكتبة فهد الوطنية.

بروفنسال، ليفي. (1954). "نص جديد عن فتح العرب للمغرب". مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، تصدر عن معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، مج02(العدد 1- 2)، ص.ص. 193- 224.

بلباس، ليوبولدو. (1953). "الأبنية الإسبانية الإسلامية" تعريب علية إبراهيم العناني. مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، تصدر عن معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، مج 01(العدد 1)، ص.ص. 97- 128.

المنارة للاستشارات

بياكروزا، مياس. (1955). "كتاب العمل بالإسطرلاب لابن الصفار". مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، تصدر عن معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، مج01 (العدد 3)، ص.ص. 47- 76.

بيرنيط، خوان. (1953). "هل هناك أصل عربي لفن الخرائط البحرية" تعريب مختار العبادي. مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، تصدر عن معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، مج 01(العدد 1)، ص.ص. 71- 96.

جييو، آ. (1953). "ثلاثة نقود لاتينية عربية من نقود من مجموعة جاك دو مورجان" تعريب تاج الدين أبو زيد. مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، تصدر عن معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، مج 01(العدد 1)، ص.ص. 62- 70.

شبيس، أوتو. (1967). "طب الأسنان عند العرب". مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، تصدر عن معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، مج14، ص.ص. 199- 230.

غومس، إميليو. (1953). "قصيدة سياسية لابن طفيل لم تنشر". مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، تصدر عن معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، مج 01(العدد 1)، ص.ص. 25- 32.

غومس، إميليو. (1954). " كتاب الأيام ومكانته في النثر العربي". مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، تصدر عن معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، مج02(العدد 1- 2)، ص.ص. 240- 251.

كورينتي، فدريكو. (1985). "خصائص كلام أهل الأندلس". مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، تصدر عن معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، مج23، ص.ص. 59- 68.

كونتش، باول. (1971). "آثار التراث العربي في اللغة الألمانية". مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، تصدر عن معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، مج16، ص.ص. 35- 47.

لاجرانخا، فرنادو دي. (1972). "كتاب تحفة المغترب ببلاد المغرب". مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، تصدر عن معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، مج17، ص.ص. 05- 182.

لوثينا، لويس سيكو. (1956). " وثائق عربية غرناطية لم تنشر بعد". مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، تصدر عن معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، مج04(العدد 1- 2)، ص.ص. 169- 183.

لوثينا، لويس سيكو. (1959- 60). "الوثائق العربية الغرناطية وقيمتها التاريخية". مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، تصدر عن معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، مج7- 8، ص.ص. 85- 108.

المقري، أبو العباس أحمد(1988) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج2، تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار صادر.

المنارة للاستشارات

المنجد، صلاح الدين. (1987) قواعد تحقيق المخطوطات، ط7، بيروت: دار الكتاب الجديد.

منندات، رامون. (1953). "إسبانيا حلقة اتصال بين المسيحية والإسلام" تعريب لطفي عبد البديع. مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، تصدر عن معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، مج 01(العدد 1)، ص.ص. 01- 24.

المنوني، محمد. (1983) المصادر العربية لتاريخ المغرب من الفتح العربي إلى نهاية العصر الحديث، ج1.

النشار، سامي. (1953). "تقديم المجلة". مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، تصدر عن معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، مج01(العدد 1- 2)، ص.ص. أ- و.

هانز، ردولف. (1970). "قائمة بأسماء الأماكن والبلدان الواردة في كتاب الصلة لابن بشكوال". مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، تصدر عن معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، مج 15 (العدد 1)، ص.ص. 151- 196.

G. Fajda, Index général des manuscrits arabes musulmans de bibliothèque national de Paris, Paris 1953.

Miguel Asin Palacios, Sadilies y alumbrados, en "Al- Andalus", X 1945.

Teresa, Garulo, Don Fernando De La Granja Santamaria (1928_1999) In Memoriam, Al_Qantara, revista de estudios Aarabes, Vol XX2, Madrid 1999.

المنارة للاستشارات